

الفصل الرابع

العثمانيون ومراكش

إن مراكش ذلك القطر العربى الإسلامى الذى يحرس الجناح العربى فى الغرب من الوطن العربى تسلمت زمام الحكم فيه أسرة شريفة هى الأسرة السعدية منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت تحكم حتى منتصف القرن السابع عشر .

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين فى الاستيلاء على الجزائر وليبيا وتونس ، وبالرغم من موقع مراكش المهم عسكريا بالنسبة للعثمانيين خاصة وأن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، كما أنها تقترب من إسبانيا من ناحية بوغاز جبل طارق . فقد ظل هذا الإقليم بمنأى عن السيطرة العثمانية التى حاولت إدماجه فى بقية أقاليمها كما حدث لبقية إقاليم العالم العربى ، ولكن مراكش استطاعت الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية ، ووقفت بإصرار ضد الأطماع التى هدتها سواء من جانب العثمانيين أو الإسبان لفترة طويلة وفيما يلى نعرض لأسباب ذلك .

فبعد أن تأسست دولة الأشراف السعديين فى مراكش على أنقاض الأسرة الوطاسية ، وتمكنت من تثبيت أقدامها هناك التمس "أبو حسون الوطاسى" مساعدة السلطان العثمانى "سليمان القانونى" الذى كان يدرك أهمية موقع مراكش ، ويرغب فى وحدة شمالى أفريقيا خلال الصراع المحتدم بين المسلمين والإسبان والبرتغاليين هناك مما يعطيه نقلا عسكريا فى صراعه مع الإمبراطور الإشباني "شارل الخامس" .

ونتيجة لذلك أمر السلطان العثماني بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع "أبي حنيني الوطاسي" . وقد تمكنت هذه الحملة من دخول فاس، في علم ١٥٥٤م وإعادة حكم الأسرة الوطاسية" على مراكش تحت السيادة العثمانية ، ولكن ذلك لم يستمر سوى بضعة أشهر حيث استطاع "محمد المهدي السعدي" استرداد فاس من العثمانيين .

ونتيجة لإصرار السعديين على عدم الانضواء للسيادة العثمانية أمر السلطان سليمان القانوني بإرسال حملة لاستعادة فتح مراكش ، وقد عهّدت قيادة هذه الحملة إلى "صالح ريس" وكان من المتوقع أن تستقر الأمور للعثمانيين هناك خاصة وأن السلطان العثماني سليمان القانوني كان يهدف إلى جمع الصف الإسلامي لتصفية الجيوب الصليبية في مراكش وفي دخول الدولة السعدية في تبعية الدولة العثمانية طوعا ، ولكن السعديين رفضوا الاعتراف بخلافه السلطان العثماني على أساس أن العثمانيين ليسوا عربا وإنما هم أعاجم ، وبأن الشرافة في مراكش يجب أن تكون لهم خاصة وأنهم يعتزون بنسبهم إلى الرسول وازداد تطلع الباب العالي إلى ضم المغرب الأقصى بعد التنافس على عرش السعديين بعد وفاة "عبد الله الغالب بالله السعدي" (في رمضان ٩٨١هـ / يناير ١٥٧٤) وتواجد بعض المطالبين بهذا العرش بالآستانة ، ولكن انشغال الدولة العثمانية بالاستعدادات لفتح قبرص ، ولجوء أعداء العثمانيين في المغرب إلى سياسة التقرب من دول أوروبا الغربية قد حال دون ذلك .

وبعد معركة وادي المخازن في ٣٠ جمادى الأول ٩٨٦هـ / ٤ أغسطس ١٥٧٨ التي انتصر فيها "عبد الملك السعدي" على القوات الإسبانية اعترفت الدولة العثمانية بسيادة السعديين على المغرب الأقصى ، وتوقفت عن فكرة التدخل المباشر في المغرب ، كما حفظت الدولة السعدية للعثمانيين الود ، وتبادل الطرفان الرسائل التي تدل على حسن علاقات الجوار بينهما .

وقد حرص السعديون على مواصلة الجهاد البحرى ضد القوى الصليبية المتحالفة ضد المسلمين ، وكان استرداد المدن المغربية من تلك القوى المعادية هى بداية حركة الجهاد التى رحب بها العثمانيون . فقد اتبع "أحمد المنصور" الذى حكم المغرب فى الفترة من ١٥٧٨-١٦٠٣ سياسة الجهاد الإسلامى لمواجهة تقدم البرتغاليين على الشواطئ الأفريقية ، وذلك بنشر الإسلام بين الأفارقة ومد نفوذ دولته من حوض نهر السنغال حتى نهر النيجر . وقد نشأت فى تلك الجهات حكومة تحتفظ بالولاء الإسمى لسلطان المغرب استمرت حوالى قرنين من الزمان .

وقد حاول "أحمد المنصور" فى حركة الجهاد البحرى ضد القوى الأوروبية المعادية أن يضرب القوى الأوربية ببعضها فحاول التحالف مع إنجلترا وهولندا ضد إسبانيا ولكنه لم ينجح فى مسعاه وإن كان قد نجح فى عقد معاهدات معهما لتنظيم حركة الملاحة والتجارة .

واستمر الجهاد الإسلامى فى المغرب الأقصى فى عهد أسرة الأشراف العلويين الذى بدأ عام ١٦٦٦ ضد القواعد الإسبانية والبرتغالية فى الأراضى المغربية فتم استرداد مدن "المهدية" و"العرانش" و"أصيلة" وأواخر القرن السابع عشر واسترداد ميناء "طنجة" ومدينة "مزاغان" من يد البرتغاليين ، وبالنسبة للدول الأوروبية التى لم تجاهر المسلمين العداء فعقد حكام المغرب معهم معاهدات تجارية، فقد تعاهد المولى محمد بن عبد الله - الذى استمر حكمه للمغرب من عام ١٧٥٧ إلى عام ١٧٩٣م - مع دول شمال أوروبا ومع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٦ ، كما توسط لدى حكام تونس وطرابلس الغرب حتى تمتنع سفنها عن مهاجمة سفن الولايات المتحدة واستمرت الأمور على ذلك حتى حدث الغزو الفرنسى للجزائر فى عام ١٨٣٠ وبرز التفوق البحرى الفرنسى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط مما دفع بأنصار الجهاد البحرى الإسلامى فى المغرب إلى الانزواء .

وانتهى الأمر بقيام انجلترا بعقد معاهدة مع الغرب فى عام ١٨٥٦
تضمنت نصوصها الحرص على تأمين الملاحة فى البحر المتوسط ،
والقضاء على عمليات الجهاد البحرى المغربى التى كانت تتركز نشاطها عند
سواحل الريف . وزاد الأمر سوءا نجاح البحرية الإسبانية فى القضاء على
السفن المغربية ، والاستيلاء على مدينة تطوان . ومنذ ذلك الوقت تزايدت
الأطماع الأوربية فى المغرب حتى تم احتلال فرنسا لها فى عام ١٩١٢ .